الفصل الخامس

تصاعد رائحة الجنة

هاربورغ

أصبحت الشقة الواقعة على مارينستراس 54 محوراً لنشاطات مثيرة متزايدة. وأصبح المسكن منتدى للجهاديين من هامبورغ الذين كانوا يتجمعون فيه لتناول العشاء والمسامرة. وكان الأمير وبهاجي يصنعان طعاماً بسيطاً – دجاجاً وبطاطس أو الأرز والخبز. وفي بعض الأحيان، أحصى الجيران أكثر من دزينة أزواج من الأحذية المصطفة خارج باب الشقة. وفي الداخل، لم تكن الشقة مفروشة – وكانت أشبه ما يكون بخيمة صيفية، وتشبه إلى حد بعيد الشقة التي انتقلوا منها في ويلهلمزبيرغ. وكانت هناك بعض الملصقات الدينية على الجدران، وهذا كل ما هنالك بالنسبة للزينة. وكان في المطبخ طاولة حولها بعض الكراسي، ويوجد سريران في غرفتي النوم. أما الغرفة الثالثة وهي غرفة عمر، فكان فيها كالعادة، فرشة على الأرض. وكان كل من الأمير وبهاجي يملكان جهازي حاسوب في غرفتيهما وبعض الكتب الإسلامية والدراسية. أما عمر فكان يقتني بعض الكتب الدينية وأكواماً من أشرطة الكاسيت والفيديو، وكلها تتعلق بالإسلام والجهاد.

وكما تبين لاحقاً، لم يكن الجيران فقط هم الذين يحصون عدد الأحذية على مدخل الشقة. فبحلول عام 1998، وصل المشهد الإسلامي المتطرف في هامبورغ درجة من النشاط لم تستطع السلطات الألمانية تجاهلها. وخلال معظم التسعينيات، كانت احتمالات وجود خطر معارضة داخلية في ألمانيا

بعيدة جداً. وكان آخر قلق حقيقي أشغل بال السلطات هناك هو الخطر القادم من اليسار السياسي المتمثل بفصائل الجيش الأحمر الذي خَلَف عصابة بادرماينهوف التي ظهرت في السبعينيات. إلا أن هذا الخطر قضي عليه منذ زمن، وانطوى الصراع الطبقي في ثنايا التاريخ. والشيء الوحيد المشترك الذي يجمع بين جيل الغولف الألماني وعصابة بادرماينهوف مويستس هو شغفهما بارتداء البلوزة السوداء ذات العنق الطويل. ومن الإجراءات التي تدل على مدى الجدّية التي كانت توليها هامبورغ لاحتمالات الخطر القادم من المتطرفين في صفوف الأعداد المتزايدة من سكانها المسلمين هو حجم الموارد التي خصصتها لمكافحة الإرهاب وطريقة توزيعها لتلك الموارد. فقد كلّفت الشرطة المحلّية رجلاً واحداً فقط وبدوام جزئي بمراقبة الإسلام المتطرف. وهذا يعني نصف رجل لمراقبة الأعمال الخطيرة بين سكان يبلغ تعدادهم 80 ألف شخص.

ولم يكن الشبان في مارينستراس 54 محل انتباه أي أحد؛ فلم يصدر عنهم شيء يجلب أي اهتمام فيما عدا النظرات الفضولية وما تهامسه الجيران من إشاعاتهم عنهم. إلا أن المسالك التي شقّوها أسفل الجالية المسلمة في هامبورغ تقاطعت مع أشخاص كانوا تحت مراقبة حكومية مركّزة. وعندما تتقاطع المسالك، فإنها في الغالب تتشابك، وأصبح الشبان القاطنون في مارينستراس 54 هم أنفسهم محل اهتمام السلطات الأمنية.

لم يكن تركيز المراقبة على المجموعة منصباً على قادتها - محمد الأمير وعمر - بل على أشخاص آخرين ليسوا من بين عناصرها المهمين. وجاء الربط الأول عن طريق شخص سوري قدم إلى ألمانيا قبل ستة عشر عاماً، ومتزوج من ألمانية، ويحمل الجنسية الألمانية، اسمه مأمون داركازنلي[1]. وكان من ضمن موجة الإسلاميين الأولى التي استقرت في ألمانيا بعد هروبها من سوريا عام 1982. وفي هامبورغ أسس دراكازنلي شركة تجارية للاستيراد والتصدير؛

وعاش حياة هادئة، ولم تثر حوله أي شبهات حتى منتصف التسعينيات. وبدأ اهتمام السلطات الحكومية به بعد ظهور رقم هاتفه في حيازة شخص يعمل في تزوير جوازات السفر ألقي القبض عليه في إفريقية عام 1993 [2]. وفشل التحقيق المقتضب في إظهار أي دليل على تورط داركازنلي في أي نشاط مخالف للقانون. وعقب تفجيرات السفارات الأمريكية في كينيا وتنزانيا في فبراير/ شباط عام 1998، ألقي القبض في كينيا على شخص لبناني يحمل الجنسية الأمريكية كان له دور في عملية التفجيرات. ووجد في حيازة هذا الرجل بطاقة عمل لشركة تجارية ادعى أنه يديرها. وكان الرجل يقيم في الولايات المتحدة، إلا أن عنوان الشركة التي يدّعي أنه يديرها موجود في هامبورغ. وذلك العنوان هو عنوان منزل داركازنلي، وهو شقة سكنية في حي هادي. وجميل من أحياء الطبقة الألمانية الوسطى. وقد أدى ذلك إلى تجديد الاهتمام بداركازنلي؛ وكشف التحقيق المكثف أن الشركة التجارية لا تقوم بأي أعمال تجارية. كما لم يظهر لأي شخص من الوهلة الأولى كيف كان داركازنلي يسكب رزقه.

في ذلك الخريف، سافر ممدوح سالم، وهو جهادي عراقي متهم بضلوعه في تفجيرات السفارات الأمريكية في شرق إفريقية، متوجهاً إلى مقاطعة بافاريا في ألمانيا. وكان سالم من المقربين من أسامة بن لادن منذ أيام الحرب مع السوفييت. وعندما طرد ابن لادن من السعودية بعد الحرب وانتقل إلى السودان، جمع حوله عدداً كبيراً من أصدقائه وأعوانه "الأفغان العرب"، ومن بينهم سالم الذي تولى إدارة شركتين يملكهما ابن لادن، كما كان عضواً في مجلس الشورى التابع لمنظمة القاعدة. وكانت الاستخبارات الأمريكية تعتبر ممدوح سالم عنصراً مهماً في القاعدة. ومن بين المهمات التي أوكلت إليه تولي جهود حصول القاعدة على أسلحة نووية. وعندما اكتشف الأمريكان أن سالماً يعتزم السفر من الإمارات إلى ألمانيا، طلبوا من الألمان اعتقاله.

قام سالم بسفرات عدّة خلال التسعينيات نيابة عن ابن لادن، وجاء إلى ألمانيا أربع مرات على الأقل قبل ذلك. انصاع الألمان للطلب الأمريكي الذي كان مرفقاً بمذكرة للقبض عليه. وبالفعل تم احتجازه. وخلال الاستجواب، اعترف سالم بعلاقاته التجارية مع ابن لادن، إلا أنه ادعى بأنه لا يعلم شيئاً عن نشاطات ابن لادن الإرهابية. وقال بأنه قدم إلى بافاريا - بالرغم من مجيئه إليها بطريق ملتوية عبر تركيا وماجوركا - فقط من أجل شراء سيارة مرسيدس ستيشن واغن. ولم يقدم توضيحاً مقنعاً لاختياره المدينة الصغيرة المتوارية التي ألقي عليه القبض فيها لشراء السيارة المزعومة. إضافة إلى ذلك، لم يكن يحمل معه سوى 800 دولار أمريكي، وهو مبلغ لا يكفي أصلاً لشراء طقم عجلات للمرسيدس، ناهيك عن سيارة مرسيدس بكاملها. واكتشف المحققون أن سالماً كان يحتفظ برقم هاتف داركازنلي مخزناً في ذاكرة هاتفه المحمول، وتبين فيما بعد أن داركازنلي يحمل وكالة من سالم تخوله التصرف بحساب مصرفي كان سالم فتحه قبل ذلك بمدة في هامبورغ[3].

أدى التحقيق في النهاية إلى قيام الأجهزة الأمنية الألمانية بطلب توجيه إدانة جنائية بحق داركازنلي وتقديمه للمحاكمة، إلا أن مكتب المدعي العام رفض هذا الطلب بحجة عدم كفاية الأدلة. والأدلة المقدمة أظهرت وجود معرفة بينه وبين الأصوليين المسلمين، ومن ضمنهم أشخاص لهم علاقة بأسامة بن لادن في ألمانيا والخارج. وهذا الفعل بحد ذاته لا يعد عملاً مخالفاً للقانون كما لاحظ أحد المحققين الألمان[4]. إلا أنه كان كافياً لوضع داركازنلي تحت المراقبة المحدودة. ومن بين الأشخاص الذين كانوا على صلة بداركازنلي أحد اللاعبين الرئيسين في مارينستراس 54 وهو سعيد بهاجي.

وعلى الرغم من أن بهاجي كان من أواخر الذين اندمجوا في مجموعة الأمير - عمر، وكان أيضاً منذ البداية أقربهم إلى الثقافة الغربية: صديقة

مسيحية، ولع بالموسيقى الصاخبة - إلا أنه أصبح وبسرعة أكثرهم أصولية وتشدداً، وأعنفهم في إصدار التصريحات القاسية ضد غير المؤمنين[5]. وما إن بدأ سيره على الدرب الجديد، حتى أظهر عزماً على الإسراع فيه بخطى حثيثة. فكان يجوب الإنترنت بين المواقع الإسلامية[6]. وأصبح من المعجبين بأسامة بن لادن. هذا التحوّل الكامل من شخص مولع بسباق السيارات، ولا يجيد الصلاة باللغة العربية إلى جهادي عدواني هو أمر يثير الفزع والهول. ولاحظ المحققون أن بهاجي كان كثيراً ما يجتمع بداركازنلي في مسجد القدس وبشخص سوري آخر صديق لداركازنلي اسمه محمد حيدر زمّار.

استقر زمّار في هامبورغ منذ سنوات عدّة كما فعل داركازنلي. وهو شخص ضخم سمين ذو لحية كثيفة، في منتصف عمره، ومهنته حرفي تجليس سيارات، ولكنه عاطل عن العمل. ويعيش هو وزوجه وأولاده الستة على معونة الكفالة الاجتماعية التي تقدمها له الدولة. ولا أحد يتذكر متى كانت آخر مرة عمل فيها بوظيفة منتظمة. فهو يمضي أوقات كثيرة في الدعوة إلى الإسلام يصعب معها تصوّر من أين سيأتي بالوقت للعمل. ويضاهي ضخامة جسمه طوله البالغ 6 أقدام و4 بوصات ووزنه البالغ 300 باوند. وفي أي نقاش، كان صوته هو الأعلى، وآراؤه هي الأكثر تطرفاً دائماً. وكان معروفاً على نطاق واسع في مساجد المدينة بأنه من المحرضين على الجهاد. التحق بمعسكرات التدريب العربية في أفغانستان بداية عام 1990، وذهب إلى البوسنة والهرسك خلال الحرب هناك، وكان يحث الشباب على اقتفاء خطاه في هذا المضمار.

لم يكن الجميع يرون أن يحمل زمّار محمل الجد. ويصف إمام أحد المساجد التي كان يتردد عليها زمّار بأنه "طفل صغير في جسم كبير" يحب الثرثرة كثيراً[7]. ويؤكد أخوه بأنه لا يشكل خطراً على أحد، وأن "مشكلته في لسانه"[8]. وقد يبلغ في بعض الأحيان حدّ السذاجة في تصرفاته، ففي إحدى

المرات، وبينما كان يتحدث عن معسكرات التدريب، تفاخر الأخ حيدر – هكذا يعرف بين رفاقه – بما تعلّمه من أساليب الدفاع عن النفس هناك. وقام باستعراض حركة تمثل ضربة جودو جانبية بالرجْل، ولكنه سقط على وجهه محدثاً هزةً قوية في البناية هُرع على إثرها الجيران أسفل الشقة إلى الطابق العلوي وطرقوا الباب للاستفسار عمّا حدث. وعلى الرغم من هذه السذاجة الواضحة في زمّار، إلا أنه كان على اتصال وثيق بشبكة الإسلاميين السرية. وبدأت الاستخبارات الألمانية بفتح تحقيق مستقل بشأنه. ويعود هذا التحقيق إلى عام 1997، عندما أخبر عملاء الاستخبارات التركية نظراءهم الألمان أن زمّاراً كان يدير ما يمكن اعتباره وكالة سفر للجهاديين مرسلاً إياهم عبر اسطنبول وأنقرة إلى باكستان وأفغانستان[9]. ويقال بأن زمّاراً نفسه قام بعشرات الرحلات عبر تركيا إلى باكستان ومنها، على سبيل الافتراض، إلى أفغانستان. وكان يعرف عنه تحمّسه وإعجابه الشديدين بابن لادن، وأنه على معرفة شخصية به. ابتدأ الألمان بمراقبته بما في ذلك التصنت على مكالماته الهاتفية ومراقبة تحركاته الشخصية، وأطلقوا على عملية التحقيق اسماً يحمل في طيّاته مفارقة مضحكة، إذ سمّوها "عملية زارثيت" وزارثيت التي تبدأ بنفس الحرف الأول من اسم زمّار تعني بالألمانية "اللطافة والرقة". قادت مراقبة داركازنلي وزمّار السلطات الألمانية إلى بهّاجي ومنير المتصدق، ومنهما إلى الشقة السكنية في هاربورغ. ومتى تعرّفت على أحد رجال هاربورغ فإن من الصعب ألا تعرف البقية.

فكّر الألمان مليّاً حول ما توصلوا إليه قبل تقديم بعض الأسماء والمواد إلى نظرائهم في الاستخبارات الأمريكية. وكان الأمريكان قد أبدوا اهتماماً من قبل بزمّار، وكانوا يعلمون أن له صلات بمجموعات عريضة من الإسلاميين[10]. وكان الألمان قد أخبروا نظراءهم الأمريكان من بين أمور أخرى، أنهم يتصنتون على مكالمات زمّار الهاتفية. وأثناء المراقبة قاموا بتسجيل عدة مكالمات دارت بينه

وبين الشحّي، ظهرت الأولى منها عندما كان الشحّي مقيماً في بون. وأخبر الألمان نظراءهم الأمريكان بأن زمّاراً تحدث إلى شخص من بون اسمه مروان يعتقدون أن له صلة بالقاعدة. وأعطوا الأمريكان رقم الهاتف المحمول للشحّي في الإمارات[11].

ومن خلال التحقيقات مع داركازنلي ومراقبة زمّار، على الأقل قبل نهاية 1998، عرفت أجهزة الاستخبارات الألمانية أسماء جميع الأشخاص في مجموعة أمير – عمر، ولم تلاحظ أي شيء مثير للريبة أو على الأقل أي شيء مخالف للقانون.

"لقد عرفناهم بوصفهم إسلاميين متشدّدين. وهذا بحد ذاته ليس جريمة" بحسب ما يقوله أحد المحققين الألمان[12]، ويضيف: "ربما كانت لهم اتصالات مع أتباع ابن لادن، وهذا أيضاً لا يشكل جريمة".

لم يكن تجنيد الأشخاص للجهاد أمراً نادراً أو مبتدعاً أو مخالفاً للقانون. فعلى مدار أكثر من عقد من الزمان، توجه آلاف من الشبان من أوروبا إلى أفغانستان والبوسنة أو الشيشان للمشاركة في القتال أو على الأكثر، إلى معسكرات التدريب في أفغانستان كنوع من الطقوس لتدشينهم نحو الأهداف الكبرى للإسلام المتطرف. وأصبح هذا العمل في ذلك العالم، من الجهود التي ينال فاعلها التقدير والاحترام من الناس بوصفها عملاً غير عادي.

وكانت الأجهزة الأمنية في أوروبا والولايات المتحدة تنظر عادة إلى الأشخاص من أمثال زمّار بوصفهم أفراداً لا جزءاً من شبكة منظمة. وكانت هناك، مع هذا كله، شبكات منظمة من الأصوليين ناشطة في تجنيد الشباب العرب. وفي كثير من الأحيان، كانت هذه الشبكات تتقاطع مع جماعة إسلامية تدعى جماعة التبليغ وتستغلها. والتبليغ هي النسخة الإسلامية من شهود يهوه، وتقوم بعمل الدعوة حول العالم. وتعلن هذه الجماعة وتؤكد أنها جماعة

مسالمة، إلا أن أجهزة الاستخبارات في الشرق الأوسط تقول بأن أهداف الجماعة أحياناً يتم اختطافها من قبل منظمات مثل: القاعدة لتجنيد المجاهدين. وفي بعض الأحيان يدّعي الأشخاص بأنهم يتحدثون باسم التبليغ ويقومون بتجنيد الأشخاص الذين تطوّعوا لعمل الدعوة ويرسلونهم إلى معسكرات التدريب التابعة لمختلف الفصائل المتقاتلة[13].

ينتمي زمّار إلى جماعة التبليغ[14]، وهو ما كان يجهله المحققون الألمان. وقبل عدة سنوات، سافر إلى باكستان بدعوة من الجماعة وانضم إليها. وتسيطر الجماعة على واحد من المساجد الثلاثة التابعة للجالية العربية في هامبورغ هو مسجد النور. وكان زمّار يستخدم هذا المسجد منطلقاً لمقابلة مجندين محتملين. وكان يفعل الشيء ذاته في مسجد القدس. وعلى الرغم من أنه لا يقوم بأي دور في هذه المساجد، إلا أنه كان يحافظ على حضور متواصل فيها حاثاً الشباب للانضمام إلى جهوده.

كما كان ضيفاً معتاداً على الشقة السكنية في هاربورغ. وكان يقود سيارته عبر الشارع الخالي من الشجر ويتوقف أمام البناية السكنية، ويتوجه إلى الشقة أعلاه حاملاً معه صناديق كرتونية من الكتب والأشرطة وغيرها من المواد التي تستخدم في تجنيد الشباب للجهاد[15]. وكان يلبس دائماً دشداشة عربية وكوفية يلفها حول عنقه. وكان يحضر حلقات التعليم التي يعقدها محمد الأمير، وينظم نزهات خارجية لمجموعات من الشباب.

يقوم السكان في هامبورغ، كما في باقي المدن الأخرى، باستئجار قطع صغيرة من الأرض خارج المدينة أو على جانب الطريق السريع وسكة الحديد لاستخدامها حديقة للنزهة وزراعة بعض الخضروات فيها. وفي العادة يبنون كوخاً صغيراً فيها، ويستخدم أبناء الطبقة العاملة تلك القطعة الصغيرة من الأرض لتكون منتجعاً ريفيّاً للنزهة والخلوة في عطلة نهاية الأسبوع والإجازات.

وتمتلك أسرة زمّار كوخاً مشابهاً قرب ستادبارك، أكبر مساحة خضراء في المدينة، وأحياناً كان يدعو الشباب في حلقات التعليم إلى كوخه في نزهة لتناول اللحم المشوي[16]. وكان يتبع أسلوباً واحداً في الدعوة دون تغيير: يحث الشباب على الانضمام إلى جهوده، وأن يقتدوا بما فعله هو، وأن يذهبوا للقتال.

أثبتت جلجلة زمّار أنها وسيلة فعّاله للتخفي. فقد أسقط الألمان من اعتبارهم الفكرة القائلة بأن أي شخص يجاهر بتعاطفه مع الإسلام المتطرف إلى هذا الحد، يمكنه أن يقوم فعلاً بما يظهر أنه يقوم به: تجنيد الأشخاص لصالح الإسلام المتطرف. ولكن ذلك هو ما كان يفعله في واقع الأمر – وكان رجال هامبورغ يولونه آذاناً صاغية.

وعندما علمت الأجهزة الأمنية الألمانية، من خلال مراقبتها زمّاراً ودراكازنلي، بوجود مجموعة هامبورغ، قامت بإلقاء نظرة فاحصة على أعضاء تلك المجموعة، ولكنها سرعان ما استنتجت أنهم مجرد مسلمين أصوليين، وليس لهم أي ارتباطات سياسية. وأدرجوا أسماء منير المتصدق وسعيد بهاجي ضمن قائمة المتطرفين الذين ينبغي مراقبتهم ورصد تحركاتهم.

يحترم القانون الألماني وإلى حد بعيد حقوق الأفراد بالخصوصية والعزلة. وجاءت هذه الحماية القانونية كردة فعل على تعسف الاشتراكية الوطنية، وممارسات النازيين في طمس الحقوق والحريات، الأمر الذي أدى إلى وضع مجموعة من الضمانات القوية ضد سلطة الدولة. وهذه الضمانات تجعل من ضمانات الحقوق المدنية الأمريكية تبدو ضئيلة إذا ما قورنت بها. فمثلاً، يمتنع على المؤسسات الإعلامية أن تقوم بنشر أو بث الأسماء الكاملة للمتهمين بارتكاب جرائم، أو حتى الذين صدرت بحقهم أحكام جنائية. فالإدانة بارتكاب جريمة مهما كانت درجة فظاعتها، لا تعد ضمن نطاق المعلومات العامة. هذا التوجه نجده سائداً وعميقاً في قانون العقوبات. ولم يكن من الممكن توجيه تهم

ضد أشخاص لأنهم كانوا موضع شك في انتمائهم إلى منظمات إرهابية. وكانت النتيجة أنه وبغض النظر عن درجة الشك لدى المحققين الألمان، فإنهم كانوا مترددين أو غير قادرين على التحرك ضد الأشخاص المصنفين في قائمة السياسيين المتطرفين.

وعلى ذلك، بقي أشخاص مثل زمّار وداركازنلي، وبالرغم من الأدلة التي تشير إلى ارتباطهم بإرهابيين أجانب، أحراراً طلقاء، واستمروا – على الأقل فيما يخص زمّاراً – في نشاطاتهم التي كانت سبباً في وضعهم في دائرة الشك ابتداءً. وقد أثار هذا الوضع جنون المتخصصين الأمريكان. قاوم الألمان بداية إصدار مذكرة اعتقال بحق سالم المسؤول المالي لابن لادن، وحتى بعد أن ظهر تورط داركازنلي من المعلومات التي حصلوا عليها من سالم، رأى الألمان أنه لا يمكنهم فعل شيء ضدّه. وبحسب قولهم، لم يكن هناك دليل على نشاط إجرامي، على الأقل، بموجب القانون الألماني. من الناحية القانونية، لم يكن هناك الكثير مما يستطيع الألمان فعله.

كان هذا هو الوضع الذي واجهه توماس فولز عندما عيّن في القنصلية الأمريكية في هامبورغ عام 1998، وكلّف ظاهرياً بمهام الملحق التجاري. وفي الحقيقة كان فولز ضابط عمليات متمرس في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA، وكانت الوكالة على علم بداركازنلي منذ عام 1993، وكانت مقتنعة أنه عضو في منظمة القاعدة،[17] ولكنها كانت عاجزة عن تقديم أدلة كافية ضدّه. وعززت الأدلة التي جمعت في أعقاب تفجيرات السفارات الأمريكية في إفريقية من القناعات الأمريكية، وقاموا مراراً بحثّ السلطات الألمانية على فعل شيء تجاهه. وقرر فولز بأنه إذا لم يكن بالإمكان اعتقال داركازنلي، فإن الحل الأفضل هو "تحويله" إلى مخبر لصالح وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. وأخبر فولز نظراءه الألمان أن بإمكانه شراء

ذمة داركازنلي[18]. ولكن الألمان سخروا من اقتراح فولز وردّوا عليه بالقول بأن المال لا يعني شيئاً بالنسبة لمؤمن متمسك مثل داركازنلي، ورفضوا الاقتراح. لم يكن بإمكان فولز فعل أي شيء بنفسه دون تجاوز الاتفاق غير الرسمي بين الأجهزة الاستخباراتية بين الدولتين؛ لذلك فقد اكتفى بعرض اقتراحه على الأجهزة الألمانية الأخرى التي رأت جميعها أن الاقتراح ما هو إلا فكرة أمريكية ساذجة.

وبعد إلحاح فولز، وكطريقة لإسكاته، وافق الألمان على الاقتراح وتحدثوا إلى داركازنلي الذي رفض عرضهم، كما يقول الألمان[19]. واستمر فولز بإلحاحه لدرجة أنه هدّد بالطرد من البلاد إذا لم يهدأ. وكانت النتيجة النهائية أن داركازنلي لم "يتحوّل" ولم يعتقل ولم تقيّد حركته بأي شكل من الأشكال.

جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية

بعد انتقاله إلى الشقة الجديدة في مارينتسراس، لم يكن محمد الأمير قد فعل أي شيء تجاه استكمال دراسته في الماجستير لمدة سنة تقريباً. وفجأة اتصل بمرشده في القسم ديتمار ماشول ليرتب معه إكمال رسالة الماجستير. وسأله ماشول: "أين كنت كل هذه المدة يا محمد؟... هل تواجه صعوبات ما؟ مشكلات أسرية؟"[20].

"نعم مشكلات عائلية في مصر"، أجابه الأمير. "أرجو أن تتفهم أنني لا أستطيع التحدث حول هذا الموضوع"[21].

وكان هذا كل ما هنالك. فعاد محمد الأمير وكأنه لم يترك الجامعة يوماً واحداً. وبدأ العمل بجد ومثابرة لإنهاء رسالته حول حلب. وعاد إلى الجامعة بطرق أخرى كذلك. فتقدم هو وبهاجي وطالب ثالث من ضباط سلاح الجو الباكستاني، بطلب إلى الجامعة لتخصيص غرفة لأداء الصلاة. وكتب الأمير

في الطلب بأن عدم وجود مكان للصلاة يسبب له مشقة مفرطة. وتمت الاستجابة لمطلبهم، وهو ما وفّر للأمير مكاناً إضافياً ليقوم من خلاله بتدريس الطلاب الإسلام.

استأنف الأمير اجتماعاته المنتظمة مع ماشول لمناقشة أفكاره وتقدّمه في البحث. وبعد ستة شهور، أي في ربيع عام 1999، قدّم مسوّدة رسالة بحجم 152 صفحة. وعندما فتحها ماشول وجد أن محمداً قد نذر الرسالة إلى الله في الصفحة الأولى. أما بقية الرسالة، فكان فيها مفاجآت أقل. وكانت عبارة عن استعراض متين، ومعاينة شاملة لتاريخ حلب، وتطورها الحاضر، واقتراح بشأن دمج أفضل بين ماضي المدينة ومستقبلها. ورأى ماشول أن الرسالة ذات جودة عالية من الجانب الفكري، إلا أنها غير مناسبة من الناحية اللغوية. وطلب من أستاذ آخر هي تشريلا فيندیت العمل مع الأمير لمساعدته في إعادة صياغة الرسالة قبل تقديمها إلى اللجنة رسمياً. عملت فيندیت مع الأمير عن طريق لقاءات منتظمة جنباً إلى جنب حول الطاولة لمدة ستة أسابيع. وكانت فيندیت تعلم عن عدم ارتياح الأمير من وجود نساء حوله، إلا أنها ذكرت أن العمل كان يسير بسلاسة حتى النهاية عندما قال لها الأمير، فجأة، بأنه لا يمكنه تحمل العمل مع هذه الدرجة من القرب بينهما. وفي ذلك الوقت كانت الصياغة الجديدة قد شارفت على الانتهاء. وفي أغسطس/ آب، قدّم محمد الأمير رسالته رسمياً. وناقشها أمام لجنة من القسم في الشهر التالي، وحصل على تقدير عال وتهنئة. ثم وصلت الشهادة فيما بعد عن طريق البريد.

كانت الرسالة عملاً عادياً من التحليل المدني، بالرغم من كونها من منظور إسلامي. ومن القضايا التي أثارت اهتمام الأمير وتعرض لها في الرسالة، مسألة تخطيط المدن الحديثة مع الأخذ بالاعتبار بقاء النساء في بيوتهن وليس في العمل. وأكثر ما يثير الاهتمام في الرسالة بشكل عام كان قرار محمد

الأمير استكمالها. فلماذا، بعد أن ترك الحياة الأكاديمية، عاد إليها فجأة بهذا التفاني؟ لم يعرف أحد جواب ذلك. كما أن الأمير لم يتحدث إلى أي من أساتذته حول نواياه.

ويتذكر ماشول أن الأمير مر من أمام مكتبه للمرة الأخيرة بعد أن حصل على شهادة الماجستير. وكان ماشول مشغولاً مع طالب آخر في مكتبه. ولم يدخل محمد – كعادته – إلى المكتب، ولم يقرع الباب، بل وقف أمام الباب المفتوح منتظراً أن يلمحه ماشول. رآه ماشول وأشار إليه بالانتظار. وانتظر الأمير؛ واقفاً على الباب ينظر حوله صامتاً لمدة عشرة دقائق أخرى. ثم تحوّل وقفل راجعاً، ولم يسمع منه ماشول ثانية منذ تلك اللحظة.

وبغض النظر عما كان ينوي الأمير فعله بعد ذلك، فقد بات من الواضح أنه سيكون في مكان آخر. وأرسل محمد إلى زميله القديم في البحث والدراسة فولكر هوث ليعلمه بالأخبار. وقد أفصحت الرسالة القصيرة عن شخص مختلف، فقد بدا في تلك الرسالة مرحاً خفيف الدم، ظريفاً إلى حد ما. وربما كان ذلك بسبب الارتياح من السنين الطويلة في الدراسة.

مرحبا فولكر،

كيف حالك يا حبة الطماطم غير المخلصة. هل ما زلت تعرفني؟ أنا محمد الأمير. لقد انتهيت (أخيراً) من دراستي. وسوف أغادر ألمانيا قريباً. هذه بعض الأشياء التي تعود لك، وغيرها، أحببت أن أرسلها إليك. أتمنى لك الأفضل في حياتك. وإني على يقين أننا سنلتقي ثانية.

وحتى ذلك الحين، إلى اللقاء.

محمد الأمير، 31 **أغسطس/ آب**1999 (22)

Odeikan.com

إضافة إلى إكمال عمله الأكاديمي، قام محمد الأمير بتسوية أشياء كثيرة كانت معلقة. وقام عدة أعضاء من مجموعة هامبورغ بتوكيل عدد من أصدقائهم في التصرف في حساباتهم المصرفية وشؤونهم المالية الأخرى في أثناء غيابهم. وخلال ستة شهور، تزوج أربعة من أعضاء المجموعة: في الربيع، تزوج زياد جرّاح من آيسل سينغن في احتفال جرى في مسجد النور في هامبورغ؛ وفي الصيف، عاد مروان الشحّي إلى الإمارات ليتزوج فتاة من بلدته اختارتها له أسرته؛ وفي الخريف، تزوج منير المتصدق من فتاة روسيّة مهاجرة، وتزوج بهاجي فتاة تركية من هامبورغ[23].

ويمكن القول إن زواج زياد جراح كان أمراً اعتباطياً ويفتقر إلى التنظيم. فقد عقد القران بالرغم من اعتراض آيسل - ليس في مسجد القدس حيث كان زياد يصلي في العادة، بل في مسجد التبليغ. وبدا زياد وكأنه كان يحاول إخفاء الحدث. فلم تبلغ أسرة أي منهما لا قبل العقد ولا بعده. وكان من الواضح أن الزفاف لم يكن إلا لإرضاء زملاء جرّاح، أو ربما لإرضاء ضميره هو. وقد كسب جرّاح هذه المعركة الصغيرة، ولكن من الصعب التكهّن بماهية الغنائم. فقد سكن الاثنان كلاً على حدة، تفصل بينهما أمور أكثر من جغرافية شمال ألمانيا. وتباعدت المدّة بين زيارة كل منهما للآخر شيئاً فشيئاً. وكان التواصل بين كل زيارة وأخرى متقطعاً. ولم يقم الزوجان بتسجيل عقد الزواج في المحكمة، وتقول آيسل بأنها لا تعتبر وثيقة الزواج حقيقية. إلا أنها حقيقية من وجهة ثانية لدرجة أصرت معها على أن يوقّع الاثنان على عقد منفصل قبل الزواج ينص تحديداً على حقها في متابعة دراستها في الطب. وقد حاول جرّاح بعد ذلك أن يتنصّل من هذا الالتزام طالباً منها ترك كلية الطب، إلا أنها توسّلت إلى الإمام الذي عقد بينهما القران وأيّد موقفها[24]. وانصاع جرّاح على مضض؛ ولم يتوقف عن الشكوى من استقلاليتها.

وقع شقاق بينهما بعد أسابيع فقط من عقد القران. ثم تصالحا سريعاً، كالعادة، فجراح ذو المزاج الداكن، كان يتميّز برقة القلب، وبلمسة حنونة على لوحة مفاتيح الحاسوب. وكان في العادة يوقع رسائله التي يرسلها إلى آيسل بكلمة إلى اللقااء ممتدة إلى آخر الصفحة، ويتبعها بسطر من علامات التعجب. وفي شهر مايو/ أيار، وبعد أن عادت المياه إلى مجاريها بين الاثنين. كتبت آيسل له: "هذا أنا ثانية، كيف حالك يا عزيزي؟ كل ما أريد أن أقوله هو أنني أفتقدك كثيراً، ميوو [كناية عن صوت الهرة] أريد أن أضمك إليّ. إني أحبك"[25].

وكتبت في يونيو/ حزيران تقول له: "أردت أن أكتب لك هذه الرسالة لأقول لك بأنني سأحبك دائماً. وسوف أتصل بك بأسرع ما يمكن. لك دوماً، آيسل"، وفي مناسبة أخرى في ذلك الربيع، وقّعت رسالة كتبت فيها، "إني أحبك، زوجتك المشتاقة آيسل جرّاح".

وما إن حل صيف ذلك العام حتى عاد الشقاق بينهما وتخاصما مرة أخرى.

وتقول آيسل في هذا الصدد: "كنت أظن أن تلك الخصومة ستستمر إلى الأبد، وأعتقد أنه كان يعتقد الشيء نفسه. إلا أننا عدنا وتصالحنا ثانية عن طريق الهاتف بعد أسبوعين".

بعد أن انتقل جراح إلى هامبورغ، لم يبتعد عن آيسل وحسب، بل وعن أسرته في لبنان. وقد كانت أسرة متماسكة وقريبة من بعضها، وكان زياد هو الابن الوحيد لأبويه، وكان أبواه قلقين عليه. وتأخر جراح في دراسته. ووصلت الأخبار إلى أسرته عن طريق بعض الأصدقاء بأن زياداً يمضي معظم وقته في المساجد، وأنه يدفع لها التبرعات بشكل منتظم. فأرسلت إليه الأسرة من يتحدث إليه حول هذا الموضوع ويهدده بقطع المصروف الشهري الذي يرسله

والده. وعندما لم تفلح تلك الوسيلة، بحسب ما يقوله المحققون، تظاهر والده بالإصابة بنوبة قلبية أملاً في استمالة زياد إلى العودة إلى لبنان. ولكنه لم يفعل.

لم يكن جراح في يوم من الأيام، عنصراً مهماً في مجموعة أمير - عمر. وكان يدرس في جامعة العلوم التطبيقية التي تقع في وسط مدينة هامبورغ، بعيداً عن هاربورغ، الضاحية الجنوبية التي توجد فيها جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية، والشقة السكنية في مارينتسراس. وكان جراح يزور هاربورغ أحياناً ولكن ليس بانتظام. وكان قريباً من عمر، ويبدو أنه لا يعرف محمد الأمير جيداً. أما البقية، فسكنوا إما مع بعضهم، أو قريباً من بعضهم، وعندما جاء إلى هامبورغ، سكن جراح لعدة شهور مع بشير مصلح، صديقه من غريفسوالد، ثم استأجر بعد ذلك غرفة وحده.

وبدأت رؤية جراح لآيسل تقل شيئاً فشيئاً. قامت هي بزيارة هامبورغ عدة مرات، ولكنها شعرت أنها غير مرحب بها هناك؛ وذات مرّة، تركها زياد وحدها في غرفته المستأجرة وذهب ليقضي وقته مع أصدقائه الذين لم يسبق لها أن تعرفت عليهم. فغضبت من ذلك، وقال لها زياد بأن المكان الذي ذهب إليه لا يمكن للنساء أن يذهبن إليه.

تقول آيسل: "كان يتحدث عن الدين بشكل عام، وحاول أن يقنعني بالالتزام بتعاليم الدين خطوة خطوة"، وتضيف: "لقد نوّرني حول المشكلات التي يعاني منها المسلمون في الشرق الأوسط، وتحدث أيضاً عن الانتفاضة. لم أكن أعرف ما تعنيه تلك الكلمة قبل ذلك الوقت، لأنه لم يكن لدى أي خلفية سياسية. وعندما سألته، قال لي بأنها كفاح الفلسطينيين ضد إسرائيل من أجل حريتهم"[26].

وذكرت آيسل للمحققين بأنها سمعت زياداً يتحدث لأول مرة عن الجهاد فقط بعد أن انتقل إلى هامبورغ أواخر 1997. وقالت: "لم أعرف ما تعنيه تلك

الكلمة"، وأضافت، "سألت بعض الأصدقاء العرب حول معناها، فسرها بعضهم لي بمعان رقيقة لتعني تأليف الكتب ودعوة الناس إلى الإسلام. إلا أن الجهاد الخاص بزياد كان أكثر عدوانية، النوع القتالي، تضحية الشخص بنفسه في سبيل دينه،... وكان يعني بأن المصالح الشخصية ليست بأهم من مصلحة الدين، كان يرى الجهاد بأنه حرب مقدّسة، وكنت خائفة بسبب ذلك. وكان هذا هو سبب تحدّثي إلى أصدقائي حول هذا الموضوع، لكي أعرف المزيد عن الجهاد. وقد شعرت في ذلك الوقت أنني لم أعد في مركز حياة زياد بعد الآن. فقد حلّت العقيدة والدين محلّي. وبدأت زيارته لي تتناقص شيئاً فشيئاً. ولأنني كنت خائفة، لم أفاتحه بموضوع الجهاد بعد ذلك. لم أكن أرغب في فهم ذلك الجهاد ولم أكن أطيق سماع أي شيء عنه"[27].

استمر ديدن الزوجين بالاختصام والمصالحة مرة بعد أخرى. وخلال إحدى فترات المصالحة، حملت آيسل، وأخبرت جرّاح بذلك الحمل، ثم أجهضت حملها بسبب الشكوك والغموض الذي يكتنف علاقتهما، بحسب ما ذكرته للمحققين. ثم اعتذرت من جراح بعد ذلك في رسالة إليكترونية قالت فيها "لقد فكرت حول ولدنا اليوم. إنني آسفة على كل شيء أسأت إليك فيه"[28].

بات من الواضح لآيسل، على الأقل، أن حياة جراح بدأت تأخذ منحنى خطراً جداً. وأخبرت إحدى صديقاتها قائلة: "لم أكن أريد أن أُترك وحيدة مع أولادي لأن زوجي ذهب للمشاركة في حرب متطرفة". وفكرت آيسل جدّياً ذات مرّة بالعودة للسكن مع والديها في ستنغارت، ولكنها بدلاً من ذلك، انتقلت إلى الجامعة في بوتشوم. وهي منطقة مشهورة بإنتاج الفحم قرب داسلدروف. ومن الناحية النظرية، كانت أقرب إلى هامبورغ - رحلة واحدة مباشرة عن طريق القطار - إلا أن زيارات جراح بقيت متقطعة. وكانت آيسل، وكما تدعي هي - امرأة اجتماعية لدرجة كبيرة. فالعزلة قاتلة بالنسبة لها. وكانت تشعر بالتوتر من الوحدة وعدم قدرتها على تعقب جراح. وكتبت له ذات مرة تقول:

مرّة أخرى، لم أتمكن من الوصول إليك. تركت لك رسالة لتعيد الاتصال بي، ولأنك لم تقم بذلك حتى الآن، فإنني أفترض أنك لم تعد إلى البيت حتى الآن. لم أستطع النوم الليلة الماضية، وفكرت طويلاً وملياً. ماذا يعني الحب بالنسبة لك؟ .... أريد أن أقول لك ماذا يعني الحب بالنسبة لي: إنه أن تقبل الطرف الآخر كما هو، أن تشاركه في كل شيء (فكرياً وجسدياً ومادياً في كل نواحي الحياة) أن تعمل شيئاً للطرف الآخر لا تفعله لنفسك، أن تكون قريباً من الطرف الآخر (خصوصاً في الأوقات الحرجة)... أريد فقط أن أسألك سؤالاً واحداً: كن صريحاً معي، لا تقلها لي فقط، إذا كنت لا تعنيها بكل صدق، وإذا كنت لا تعتقد أنني سأغيّر رأيي عن الجهاد... فكر جيداً بالموضوع، وإذا كنت لا تقدر أن تعطيني ذلك الوعد، فمن الأفضل أن ننسى زواجنا وبالرغم من أن ذلك سيؤلمني كثيراً.

حبيبتك آيسل[29]

وعندما تواجه آيسل صعوبة في الاتصال بزياد، كانت تحاول تحديد مكانه عن طريق الاتصال بكل أرقام الهواتف التي يمكن أن تسعفها في تحديد مكانه، أو أرقام أصدقائه الذين سمح لها بالتعرف عليهم في هامبورغ. وعندما يتبين عدم جدوى ذلك، كانت تتصل بأي شخص آخر يمكن أن يعرفه. وفي إحدى المرات، وبعد أن استيئست من العثور عليه، ومن شدّة تلهفها للتحدث إليه، استخرجت فواتير هاتفها لتحديد الأرقام التي اتصل بها زياد أثناء وجوده عندها، فاتصلت بكل رقم يخص زياداً ظهر في الفاتورة مستفسرة عن مكان وجوده. إلا أن ذلك كان دون جدوى. وخلال أول سنتين في هامبورغ، احتفظ جراح، ولو اسمياً، بولائه لآيسل. كما حافظ على دراسته في هندسة الطيران. إلا أنه أخذ بالتراجع التدريجي عنها ليغوص أكثر في عالمه الجديد، العالم الذي لا يسمح لها بأن تلحق به.

أخبرها ذات مرة بأنه يشعر بالخزي منها، ومن أساليبها الغربية في الحياة: التدخين، شرب الكحول، والتصرف بطريقة تشبه كل شيء ما عدا الزوجة المسلمة المطيعة. وتذكر رفيقات آيسل في السكن الجامعي بأن انتقاد زياد لها وصل حد العنف أحياناً. وذات مرة، أخبرتهن آيسل بأنه ضربها. كما هدد بفعل ما هو أسوأ من ذلك لإحدى رفيقاتها في السكن التي أصبحت فيما بعد صديقة له، قائلاً: "اليوم أنا أجلس هنا معك، ... وغداً سوف أقتلك"[30].

كفر الشيخ

لم يواجه سعيد بهاجي أياً من المشكلات التي واجهها زياد مع آيسل. فقد كانت زوجته ابنة ملتزمة لأحد أئمة المساجد التركية في المدينة. وكانت مرتاحة لأصولية سعيد بدرجة لا تقل عن ارتياحه هو لها. تزوج الاثنان في أكتوبر/ تشرين أول في مسجد القدس. وكان الأخ حيدر زمّار موجوداً في الحفل؛ وألقى عمر محاضرة سياسية معتذراً في بدايتها عن إقحام السياسة في حفل الزواج، ليسترسل بعدها في خطابه السياسي؛ وقاد مروان الشحي مجموعة إنشاد القصائد الجهادية، ومن المظاهر البارزة في حفلات الزفاف الإسلامية التقليدية عدم إمكانية مشاهدة العروس في هذه الحفلات. ويعكس زفاف بهاجي، من ذلك الجانب، الحياة التي يعيشها هؤلاء الأشخاص. فقد كانوا وحدهم معاً في المسجد دون أي تدخل من العالم الخارجي.

وقال عمر: "إننا الآن نعيش في مدرسة، تماماً كما نكون في الدروس العربية، وفي النهاية سنأخذ الامتحان، وفي هذا الامتحان، سينجح بعضنا ويرسب آخرون"[31].

وهذا الكلام يشبه التحذير والإنذار، ولكن عمر كعادته، ألقاه ببشاشة واضحة وخالياً من أية نبرة غاضبة. حتى إنه توقف في أثناء خطبته عدة لحظات ليبتسم في وجوه الحضور، وتابع حديثه ليدين الاحتلال اليهودي

للقدس، ويذكّر الحضور بمسؤوليتهم عن إنهاء ذلك الاحتلال. "إن مشكلة القدس هي مشكلة الأمة [الإسلامية] . وهذا يعني أنها مشكلة كل مسلم أينما وجد على وجه الأرض. وعلى المسلم أن يذكّر رفاقه في أثناء كل جهاد وفي كل وقت. عليه أن يذكّرهم بمشكلات الأمة، الأمة المحبوبة، والحديث عن هذا الموضوع لا يضر بهذا الاحتفال، بل بالعكس. إن من واجب كل مسلم أن يكون هدفه تحرير الأرض الإسلامية من كل الطغاة والظالمين".

واستشهد عمر بقصيدة مفادها أن القدس سيأتيها يوم تجتاحها "موجة من النار والدم" ثم أفسح المجال للشحّي وأصدقائه الذين أنشدوا قصائد الجهاد. وإحدى هذه القصائد تتحدث عن متاع الدنيا الزائل والمعركة، وعن الشوق إلى نعيم الجنة وحورياتها والشهادة التي هي طريق الوصل إليها.

ويبدو أن إلقاء الخطب عن الحرب المقدسة والشهادة لم يزعج أحداً من الحضور. وفي الواقع، أن الحضور في لحظة ما خلال الحفل، قاموا تلقائياً بترديد هتافات الجهاد. ثم أكل الحضور التمر ووضعوا النوى في طبق صغير أدير حول الغرفة وهتفوا للحرب. ثم عانقوا بعضهم بعضاً وقبّلوا بعضهم ثلاث قبلات على الوجنتين. ولعب الأولاد في آخر الغرفة. وبعيداً في الجهة الثانية من الغرفة كانت تتدلى ستارة بيضاء، احتجبت خلفها النساء اللاتي لم يظهرن في الشريط.

فات محمد الأمير حضور زفاف بهاجي. بسبب سفره إلى مصر لرؤية أبويه. واستقبله أبوه كالبطل الفاتح في القاهرة، وباشر بمهمة البحث عن عروس مناسبة له[32].

وقال والد محمد: "لقد قلت له يجب أن تبحث لك عن زوجة"، وكان الوالد محامياً متمرساً. وكان دائماً مستعداً لقضيته. وفي هذه المرة، كان في باله عروس محتملة، "ذهبنا لزيارة الأسرة، وتعرّف محمد على البنت، وأحب كل منهما الآخر.

كما أحب والدا الفتاة محمداً، ولكن كان شرطهما الوحيد أن لا تغادر ابنتهما القاهرة. فخطبها محمد، وعاد ليكمل الحصول على شهادة الدكتوراه".

كان ذلك، على الأقل، ما قاله محمد لأبيه، أنه ذاهب من ألمانيا إلى الولايات المتحدة لمتابعة الدكتوراه. وأخبر أصدقاءه بالشيء نفسه. وكان أبواه في تلك اللحظة على خلاف بينهما حول الترتيبات المتعلقة بزواج ابنتهما البكر، وبحسب ما تذكره حميدة فاتح، خالة محمد، فإن والد محمد لم يوافق على العريس، وكان يعمل طبيباً في جراحة القلب، ووقع الاختيار عليه من قبل أهل الأم. وكانت صحة بثينة في حالة متردية، وتعاني من مرض السكري. وكانت زيارة محمد مناسبة جلبت إليها كثيراً من البهجة والمواساة. ذهبت به شمالاً إلى الدلتا، إلى كفر الشيخ، لتتباهى به أمام أقاربها. "لقد كانت سعيدة جداً جداً بقدوم محمد"، كما تقول فاتح.

بدا محمد وسيماً وبصحة جيدة، كما تذكر فاتح، وجاهزاً لأي شيء. إلا أنه قال لأمه بأنه غير متأكد من مسألة متابعة الدراسة. وأن ما يريده بالفعل هو البقاء في مصر؛ وقال لها بأنه تعب من الدراسة، وأنه يرغب في البقاء في القاهرة كي يعتني بها. وسألها أن تطلب من أبيه وتحثه على الموافقة على ذلك. إلا أن بثينة رفضت، وأصرّت هي الأخرى أن أباه محق في موقفه، ويجب عليه أن يتابع دراسته[33]. وقالت له أنت بحاجة للحصول على الدكتوراه، اذهب إلى أمريكا.

هامبورغ

الجالية العربية في هامبورغ صغيرة جداً لدرجة أن كل شخص يعرف الآخر وبخاصة بين الأصوليين. إلا أن العلاقات بينهم في تطوّر مستمر. ولم يسبق أن شكّل الإسلاميون في هامبورغ جماعة كبيرة ثابتة. بل كانوا سلسلة من المجموعات الصغيرة التي تتقاطع مع بعضها. ويتنقّل الأشخاص من واحدة لأخرى. ويصدق هذا الوصف على أفكارهم ومعتقداتهم.

ويتسابق الشباب على الكتب الدينية، وأشرطة الفيديو التي تحتوي على الخطب والدروس. ومن بين هذه الأشرطة، شريط فيه خطبة لإمام فلسطيني يتخذ من لندن مقراً له يدعى أبو قتادة[34]، ويعد من أبرز منظري الإسلام المتطرف. ويتمتع بشبكة قويّة داخل الحركات المحلية في عدة دول؛ كما أن مسجده في لندن كان مغناطيساً يجذب إليه الناشطين من مختلف أنحاء البلاد. ويظهر في إحدى أشرطة هامبورغ، حيث ناشد هذا الإمام المؤمنين التحرر من نير الكفار الذين يحكمون العالم، وقتل أبنائهم وسبي نسائهم وتدمير مزارعهم ومنازلهم. وأن حكم الرب هذا قد صدر فيهم من قبل، وأنهم، بحسب قوله، يستحقون الموت.

كانت هذه الأفكار وما شابهها هي التي يتناقش حولها رجال هامبورغ على مدى السنوات. فقد كان هناك توجه شائع بين الأصوليين، نشأ بداية عند المنظرين المصريين، يقول بأن المسلمين يجب عليهم أداء "الفريضة الغائبة" في إصلاح العالم، وعمل كل ما يلزم عمله لتحقيقها[35]. وذُهل عدد من مجموعة هامبورغ من رؤية عالم مسلم يروّج للأفعال التي ينادي بها أبو قتادة. لعلم كثير منهم أن الاعتقاد بمثل هذه الأفكار سيودي بهم إلى السجن أو ربما الأسوأ من ذلك، ترحيلهم إلى أوطانهم. والواقع أن التعبير عن مثل تلك الأفكار كان أكثر شيوعاً وأكثر علانية خارج العالم الإسلامي. فقد فرض الحكام العرب مراقبة دائمة على مظاهر شغب الإسلاميين؛ وكانوا يرقصون حولها علناً، فتارة يتسامحون تجاهها، وتارة يقمعون أدنى درجات التلميح بها. أما الحكومات الغربية، فمن الواضح أنها كانت تفكر أنه ليس لديها ما تخشاه من هذه المشاعر سوى القليل، وأحياناً يتم تجاهلها كلياً. وإذا لاحظوها أصلاً، فإنهم ينزعون إلى عدم قمعها. وهذا ما حدث في هامبورغ. فقد كان المشهد المتنامي للإسلاميين المتطرفين معروفاً لدى السلطات التي لم تفعل شيئاً للتدخل فيه. وبمرور الوقت توارى الأشخاص الذين كانوا يحذّرون من الأفكار التي يدعو

إليها أبو قتادة ومن ماثله، من هامبورغ. بعضهم أنهى دراسته وغادر المدينة، وبعضهم ذهب إلى جامعات أخرى في ألمانيا. وبعضهم الآخر غادر المدينة خوفاً مما ستجلبه عليهم أفكار زملائهم المتطرفة. وكانت النتيجة غربلة الأفكار والأشخاص. فكانت غالبية الذين بقوا من الأكثر تطرفاً. وكانوا يميلون إلى تأييد وتدعيم الأفكار الأكثر تطرفاً بين بعضهم بعضاً ذاهبين بها إلى أبعد مرامي الإسلام.

وكانت الفكرة المركزية التي سيطرت على المناقشات هي الجهاد. وذكّر عمر ومحمد الأمير أصدقاءهما بأن "الجنة تحت ظلال السيوف"[36].

يوجد في الإسلام من الناحية التقليدية مفهومان متمايزان للجهاد. الأول، وهو الغالب من الناحية التاريخية، هو جهاد الفرد اليومي ضد نفسه. وهذا المفهوم للجهاد لا يختلف عن جوهر الإيمان في كثير من الأديان الأخرى؛ فهو السبب الذي جعل الدين قوة طبيعية في معظم المجتمعات، ودفع غير المؤمنين إلى الاعتراف بفضل الأثر الاجتماعي للدين. ويقول النبي محمد: "أفضل الجهاد هو جهاد المرء ضد نفسه في سبيل الله جل جلاله"(*).

أما النوع الآخر من الجهاد، فهو القتال الحقيقي ضد أعداء الإسلام. ويقول القرآن في هذا ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ (البقرة: 190). والتفسير التقليدي لهذه الآية يقضي بأن على المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم وأرضهم، ولكن يجب أن لا يعتدوا. وفي القرن العشرين دعا المفكرون المتطرفون إلى مفهوم موسّع لما يعد دفاعاً عن النفس. وقالوا بأن جميع غير المسلمين هم أعداء ألداء للمسلمين ولا يدخرون وسعاً في تدمير الإسلام متى سنحت لهم الفرصة. كما أن المسلمين غير الملتزمين

(*) هكذا ورد في الكتاب على ذمة المؤلف، ولا يوجد له تخريج.

بالإسلام بمن فيهم حكام الوطن العربي هم أيضاً أعداء للإسلام. هؤلاء المفكرون ومن تبعهم، أعادوا اكتشاف الجهاد كسلاح هجومي. وكانت هذه الفكرة الجديدة عن الجهاد هي القوة الدافعة وراء الإسلام المتطرف. فكل فرد مسلم عليه واجب للقتال نيابة عن عقيدته ضد الكفار ومفسدي العقيدة.

وقد شكل هذه التوجه الجديد صحوة إسلامية عظيمة بالنسبة لمسلمي العصر. وقنن أسامة بن لادن الذي هو محارب قديم في هذه المعركة، هذا الالتزام بعد الحرب الأفغانية: ما برح المسلمون يدافعون عن أنفسهم ضد تحالف العدوان الصهيوني الصليبي؛ والجهاد واجب على كل مسلم. وقتل الأمريكان وحلفائهم، من مدينين وعسكريين، هو واجب فردي يقع على كل مسلم قادر في أي دولة يمكنه فيها أداء هذا الواجب، إلى أن يتم تحرير المسجد الأقصى في القدس والمسجد الحرام في مكة من قبضتهم وإلى أن يتم تحطيم جيوشهم، وكسر أجنحتهم، وطردهم من بلاد الإسلام، حتى يزول خطرهم عن أي مسلم[37].

كما أن زمّاراً، وهو الآخر محارب قديم في الحرب الأفغانية، كان يتحدث دائماً عن الجهاد؛ وبدأ أعضاء مجموعة عمر - الأمير، وبخاصة بعد انضمام مروان الشحّي إليها، بتبني الفكرة أيضاً. وعلى الرغم من أن عمر كان يتحدث دائماً عن الجهاد من الناحية النظرية، إلا أن مظاهر التردد كانت تظهر عليه عندما كان زمّار يحث الرجال على القيام بأكثر من مجرد المساهمة المالية أو الدعم المعنوي لإخوانه في البوسنة أو الشيشان. ومع مرور الزمن تلاشت تلك الشكوك، وبدأ يفكر بطريقة رومانسية حول القتال ويتخيل نفسه في خندق المعركة[38]. كان الأتباع الأوائل للنبي محمد من اليمنيين؛ ويسود شعور بين سكان اليمن هذه الأيام بأنهم هم المؤمنون الحقيقيون، الشعب المختار الذي ينتظر النداء للدفاع عن العرش. ويشخص عمر هذا الإيمان الحدسي غير

الواعي. وتتطابق معتقدات الشحي مع قناعات عمر من حيث كونها حرفية ونقليّة ولا تستند إلى المنطق. فكان يتحدث بتشوق عن الجنة وعن الجلوس في ظل شجرة على ضفة نهر عريض من العسل. أما محمد الأمير، فكانت علاقته بدينه أكثر حداثة. وعلى الرغم من مزاجه النكد، إلا أنه كان يتسم بالحداثة والمنطقية، وكان مهندساً حتى العظم. ويعتقد بإمكانية تحليل أي شيء من أجل التوصل إلى الجواب الصحيح. ومتى ما توصل إلى الجواب بتلك الطريقة فإنه يبقى راسخاً في قناعاته لا يتزحزح عنها، شريطة أن يصل إلى تلك القناعة بنفسه. وأثناء مناقشاته وحلقات التعليم التي يعقدها حول المدينة، وفي شقته الصغيرة في هامبورغ، كان محمد الأمير يحرص على عدم الضغط على الآخرين لتبني الأفكار المتطرفة. ومن بين المبادئ التي يسير عليها "لا إكراه في الدين"[39]. وفي النهاية، هناك القرآن والتفسيرات الفردية لأحكامه. والفرد، وليس الجماعة، هو المسؤول عن أعماله أمام الرب. وحرص محمد ذات مرة على التحدث بحديث خاص مع أحد الشباب الأصغر سناً من المشاركين في دروسه العلمية لكي ينصحه بالابتعاد عن المتطرفين الذين يحاولون التأثير على طريقة تفكيره[40]. وقال له، اتبع ما جاء في القرآن، وكن حذراً في حياتك.

من الطبيعي أن يضفي هذا الاعتقاد بحرية الفرد في الاختيار نوعاً من الانضباط والتأدب والورع على مناقشات المجموعة. إلا أنه ومع تواري الأصوات المعتدلة، أو طردها خارج الحلبة، بدأت مظاهر الانفعال والهيجان تتزايد لدى الأمير وعمر والشحي في كل مرة يتحول فيها النقاش إلى الجهاد واليهود وأمريكا. وكانت تلك هي المناسبة الوحيدة التي يظهر فيها انفعالهم الحقيقي. وفي بعض الأحيان، ودون مناسبة أو مقدمات، يبدأ أحد الرجال بالهتاف قائلاً: "طريقنا!" فتجيب البقية بصوت واحد: "الجهاد!"، ثم يبدأ الجميع بترديد الهتاف بصوت واحد: "الجهاد طريقنا! الجهاد طريقنا!". ونظراً

لأنهم كانوا يسهرون حتى ساعات الصباح الباكر في جلساتهم تلك، كان الجيران يشتكون من الإزعاج في كل مكان سكنوا فيه. وبدأ الرجال يجتمعون بشكل دوري بمحمد فزازي، الإمام المغربي الشرس الذي ما انفك يدعو إلى الجهاد المتواصل في أعنف صوره. ألقى فزازي الدروس في مسجد القدس لعدة شهور وكان يولي اهتماماً خاصاً بالمجموعة التي بدا أعضاؤها أكثر جدية، وأكثر تركيزاً من غيرهم من الشباب الأصولي[41].

تبنت المجموعة حديث النبي الذي شبه فيه الأمة الإسلامية بالجسد، إذا أصيب مسلم أو أوذي في أي مكان في العالم، فكأن الجسد أصيب بالحمى. وعدم مقاومة هذه الحمى يعد إثماً.

وكانوا يعتقدون أن الجهاد، سيطهر الأرض في النهاية، وسيضع حداً للفتنة والاضطراب وانتهاك الحرمات المنتشر بشكل واضح في كل مكان. كما أن التشويش والفوضى يحيطان بالمسلمين من كل الجوانب، وتقع المسؤولية في تحرير المسلمين من الأفكار المشوشة على عاتق المستنيرين من بينهم. وكان محمد الأمير، على وجه خاص، يبغض الفوضى التي شاهدها في الغرب. ومنذ السنة الأولى التي التحق فيها بالجامعة أبدى امتعاضه من الصخب والضوضاء المعهودة في تجمعات الطلاب في صالة عرض الفيلم الذي اصطحبه إليه رفيقه في السكن الجامعي، فغاص في كرسيه وأخذ يردد كلمة "فوضى، فوضى". وكان محمد يقول لتلاميذه بأن الحلول التي جاء بها القرآن واضحة وبسيطة وأن بإمكانها - إذا قرئت وطبقت - أن تحل المشكلة. ومن هذا المنطلق كان يرى ضرورة الجهاد - من أجل التخلص من اليهود والأمريكان الذين يتعمدون إحداث التشويش والخلط. وقال بأن طرق الغرب هي الطرق التي يستخدمها الشيطان لنشر الفوضى والتشويش بين المؤمنين[42]. ويقع على كل مسلم واجب مجابهة ذلك.

وأصبح الطريق واضحاً أمامهم: يجب عليهم، كما قال الرسول، أن يشرعوا سيوفهم.

أفغانستان

في مطلع أكتوبر/ تشرين أول، وفي ملاحظة كتبها لنفسه، خط زياد جراح هذه العبارات: "سيبزغ الفجر، وسيأتي النصر، سيأتي النصر، أقسمنا أن نهزمكم. وسنزلزل الأرض من تحت أقدامكم"[43]. وبعد أسبوع، وقبل أيام قليلة من موعد وصول آيسل من بوتشوم عبر القطار لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معه، كتب أيضاً: "جئت إليك برجال يحبون الموت كما تحب الحياة ...يبذل المجاهدون أموالهم لشراء السلاح، والطعام، والسفر، لتحقيق النصر، أو الموت في سبيل الله، إلا أن التعساء سيقتلون. ورائحة الجنة تتصاعد".

وعقب ذلك بوقت قصير، زارته آيسل في هامبورغ. إلا أن تلك الزيارة لم تتم كما كانت تتوقع، وهو وصف ينطبق على معظم زياراتها له، إلا أن هذه الزيارة كانت مختلفة. فعقد القران والزفاف لم يحل أي مشكلة. وبقيت اختلافاتهما على حدتها المعهودة. وكان جراح في السابق بعيداً من حيث المسافة، أما الآن فهو غير موجود. وتقول آيسل: "لقد أرعبني ذلك". وبدأ يكثر من الحديث عن الشيشان، ويظهر وكأن عبئاً كبيراً يثقل كاهله. وخامر آيسل شك في أن أمراً جللاً يوشك أن يحدث، ولكنها لم تستطع تحديده. توقف زياد عن الذهاب إلى دروسه في الجامعة. وأخبر آيسل أنه ينوي الذهاب إلى لبنان لكي يحدد أين وصل في حياته وإلى أين سيتوجه.

وقام الاثنان بتنظيف غرفته الصغيرة، وحزم أمتعته، وفرز الأشياء التي سيأخذها معه إلى لبنان وتلك التي سيبقيها مع آيسل. وأودع زياد أوراقه وكتبه الخاصة بالجامعة لدى بشير مصلح في سكنه الجامعي. ولما قام زياد بمرافقة آيسل إلى محطة القطار للعودة إلى بيتشوم، انتابها شعور عارم بالخوف من

أنها لن تشاهده ثانية. وعرفت آيسل في نفسها أن الوجهة التي سيقصدها زياد ليست منزل أبيه وأمه.

وكانت محقة في شعورها. وفي الشهر الذي بدأ فيه جراح والأمير وعمر والشحي بالتحضير للسفر من هامبورغ إلى باكستان عبر تركيا - طريق محمد زمّار - قام الشحي بسحب 7 آلاف دولار من حسابه لدفع ثمن تذاكر السفر[44]. وقام الشحي بتوكيل منير المتصدق وكالة عامة، وطلب منه إنهاء عقد إيجار شقته. وأخبره بأنه عائد إلى الإمارات العربية المتحدة ليبقى مع زوجته، وأنه لا يعتزم العودة إلى ألمانيا.

سافرت المجموعة فرادى تجنباً لإثارة الانتباه من قبل السلطات الأمنية، سواء من خلال غيابهم عن الدراسة، أو في سفرهم. كان الشحي أول المغادرين، وتبعه محمد الأمير فجراح. وبعد أن غادر محمد الأمير سأل شاهد نيكلز عمر عن محمد، وعن سبب توقفه عن إلقاء الدروس[45]. وقال عمر بأن الأمير توجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على شهادة الدكتوراه. وبعد أسبوع كرر نيكلز السؤال نفسه عن محمد، وهذه المرة ابتسم عمر وقال، لا، لم تفلح محاولة السفر إلى الولايات المتحدة. إنه الآن في ماليزيا. وبعد ذلك، غادر عمر المدينة.